دور الإيمان
في تأهيل الشعور بالمسؤولية
وتطوير محاسبة النفس

د. عبدالرزاق بن أحمد ظفر(*)

تعتبر كليات رسائل النور تفسيراً للقرآن الكريم لهذا العصر، والمؤتمر التاسع هذا يناقش العلم والإيمان والأخلاق لأجل مستقبل أفضل للإنسانية، مقاربة رسائل النور.

يقول الأستاذ النورسي "إن الإيمان بالله أعلى مرتبة للإنسانية وأفضل مقام للبشرية".(١)

ولقد "جيء بهذا الإنسان إلى هذا العالم لأجل أن يتكامل بالمعرفة والدعاء، لأن كل شيء فيه موجه إلى العلم ومتعلق بالمعرفة حسب الماهية والاستعداد. فأساس كل العلوم الحقيقية ومعدنها ونورها وروحها هو (معرفة الله تعالى)، كما أن أس هذا الأساس هو (الإيمان بالله جل وعلا) ".(٢)

فهناك علاقة قوية بين العلم والإيمان، فأول آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العَلَق:١- ٥)

(*) الأستاذ المشارك بقسم المناهج وطرق التدريس - كلية التربية – جامعة أم القرى - مكة المكرمة- المملكة العربية السعودية. selimnurm@gmail.com

(١) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة العشرون، ص٢٨٣. دار سوزلر بالقاهرة- دار زهير غنيم للنشر، المملكة العربية السعودية.

(٢) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة الثالثة والعشرون، ص٣٥٢. دار سوزلر بالقاهرة- دار زهير غنيم للنشر، المملكة العربية السعودية.

إن الدين الإسلامي يهتم بالعلم والتعليم، لأن " كل علم من العلوم العديدة يدل على خالق الكون ذي الجلال، ويعرّفه لنا سبحانه بأسمائه الحسنى، ويعلّمه إيانا بصفاته الجليلة وكمالاته"[١]، ويذكر الأستاذ النورسي في تفسيره القيم "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز": "إن فواصل الآيات (لا يعلمون)، (لا يعقلون)، (لا يتفكرون) تشير إلى أن المنهجية الإسلامية مبنية على العقل والحكمة والعلم. فمن شأنها أن يقبلها كل عقل سليم".[٢]

إن النظر إلى العلوم كلها بالمنظار المشار إليه سابقاً، يعرّف الإنسان بالله سبحانه وتعالى ليتحقق الإيمان الذي يؤدي إلى تقوية إرادة الإنسان، ليتمكن من تصحيح سلوكياته وأخلاقه، التي قال عنها سيد البشرية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم "إنما بُعثتُ لأُتَمم مكارم الأخلاق"[٣]. رواه الحاكم وصححه الألباني.

إن للإيمان أدواراً عديدة في حياة المسلم، وأحد هذه الأدوار هو الذي يتناوله الباحث بعنوان "دور الإيمان في تأهيل الشعور بالمسئولية وتطوير محاسبة النفس من منظور رسائل النور".

فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذَّارِيَاتِ: ٥٦)

ولتوضيح منهج هذه العبادة اصطفى من عباده رسلاً مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم كتبا لتنير لهم طريق الحق. ولتكتمل منظومة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، أعد الله سبحانه وتعالى داراً للحساب والجزاء حيث يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الدُّخَانِ: ٣٨-٤٠)

ويقول: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلاَ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ (طَهَ: ٧٤-٧٦) وكتب بعلمه ما يحدث

(١) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة الثالثة عشرة، ص١٧٧. دار سوزلر بالقاهرة- دار زهير غنيم للنشر، المملكة العربية السعودية.

(٢) بديع الزمان سعيد النورسي: إشارات الإعجاز، ص١٠٥. دار سوزلر بالقاهرة- دار زهير غنيم للنشر، المملكة العربية السعودية.

(٣) مستدرك الوسائل – الجزء ١١ باب ٦ . (استحباب التخلق بمكارم الأخلاق) ص ١٨٧

وسيحدث في هذا الكون. وهكذا فإن منظومة الإيمان المتمثلة بالأركان الستة تقدم للإنسان صورة حقيقية متكاملة حول سبب وجوده في الدنيا والمسئوليات المطلوب منه القيام بها. والقرآن الكريم بيّن عظم هذه المسئولية بقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ (الأَحْزَابِ : ٧٢)

ورسائل النور ربطت المسئولية في عدة جوانب من أهمها: (الجزء الاختياري من القدر، الاهتمام بالواجبات وأداء المسئوليات، والحشر).

الجانب الأول: الجزء الاختياري من القدر

إن الكلمة السادسة والعشرين توضح "أن القدر والجزء الاختياري هما أعلى مراتب الإيمان والإسلام ...، ولكي لا يغتر الإنسان بما صدر عنه من حسنات وفضائل، يواجهه القدر، قائلاً له: أعرف حدك فلست أنت الفاعل ... ولكي لا ينجو في النهاية من التكليف والمسئولية يبرز أمامه الجزء الاختياري قائلاً له: أنت مسؤول، أنت مكلف".[١]

وبذلك ينقذ القدرُ الإنسانَ من الغرور، والجزءَ الاختياري ينجيه من الشعور بعدم المسئولية.

و"القرآن الكريم يبين أن الإنسان مسئول عن سيئاته مسئولية كاملة، لأن الإنسان هو الذي أراد السيئات".[٢] بحيث أنه إذا كان من أهل الغفلة فيرى نفسه مالكة لنفسه ويرجع أفعاله إليها ويسندها إلى الأسباب، بينما يحمل القدر المسؤولية والتقصيرات التي عملها، ومن جهة أخرى فإن كان الإنسان "ذا إيمان كامل، مطمئن القلب، فإنه يفوض أمر الكائنات كلها ونفسه إلى الله سبحانه وتعالى، ويعتقد بأن الأمور تجري تحت تصرفه سبحانه وتدبيره، فيتحمل المسؤولية، مستنداً إلى الجزء الاختياري وينظر إلى القدر في الحسنات والفضائل الصادرة عنه، لئلا يأخذه الغرور، فيشكر ربه بدل الفخر، ويرى القدر في المصائب التي تنزل به فيصبر".[٣]

---

(١) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة السادسة والعشرون، ص٥٣١. دار سوزلر بالقاهرة- دار زهير غنيم للنشر، المملكة العربية السعودية.

(٢) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة السادسة والعشرون، ص٥٣٢. دار سوزلر بالقاهرة- دار زهير غنيم للنشر، المملكة العربية السعودية.

(٣) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة السادسة والعشرون، ص٥٣٤. دار سوزلر بالقاهرة-

لقد وفق الأستاذ النورسي بين القدر والجزء الاختياري بسبعة أوجه، أشير إلى الوجه السابع منها حيث يقول "يا عبدي أي طريق تختاره للسلوك، فأنا أسوقك إليه فالمسئولية تقع عليك ".[١]

إن المتمعن في فهم القدر والجزء الاختياري منه، يساعد الفرد في توجيه سلوكه إلى كل خير، وبذلك يكون قريباً من الله، ويتم له القبول في الأرض، والقدر هو أحد أركان الإيمان الستة [٢]، وهذا الركن المتمثل في القدر يؤهل الإنسان للشعور بالمسئولية وتطوير محاسبة النفس.

الجانب الثاني : الاهتمام بالواجبات وأداء المسئوليات

يشير الأستاذ النورسي في موضوع الاهتمام بالواجبات وأداء المسئوليات المناطة بالإنسان إلى: "أن رأس مال العمر قليل والواجبات كالدوائر المتداخلة المتحدة المركز حول الإنسان، فابتداءاً من دائرة القلب والمعدة والجسد والبيت والمحلة والمدينة والبلاد والكرة الأرضية والبشرية، وانتهاءاً إلى دائرة الأحياء قاطبة والعالم أجمع كلها دوائر متداخلة بعضها في البعض الآخر، فكل إنسان له نوع من الوظيفة في كل دائرة من تلك الدوائر ولكن أعظم الواجبات وأهمها، بل أدومها بالنسبة له هي في أصغر تلك الدوائر وأقربها إليه، بينما أصغر الواجبات وأقلها شأناً ودواماً هي في أعظم تلك الدوائر وأبعدها عنه، فقياساً على هذا، يمكن أن تتناسب الوظائف والواجبات تناسباً عكسياً مع سعة الدائرة، أي كلما صغرت الدائرة وقربت عظمت أهمية الوظيفة، وكلما كبرت الدائرة وبعدت قلت أهمية الوظيفة ... ولكن لما كانت الدائرة العظمى فاتنة جذابة، فهي تشغل الإنسان بأمور غير ضرورية له، وتصرف فكره إلى أعمال لا تعنيه بشيء، حتى تجعله يهمل واجباته الضرورية في الدائرة الصغيرة القريبة منه، فيهدر عندئذٍ رأس مال عمره، ويضيع حياته سدى"[٣].

دار زهير غنيم للنشر، المملكة العربية السعودية.

(١) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة السادسة والعشرون، ص٥٣٨. دار سوزلر بالقاهرة- دار زهير غنيم للنشر، المملكة العربية السعودية.

(٢) الوافي في شرح الأربعين النووية – الحديث الثاني – مصطفى البغا ومحي الدين مستو – دار الكلم الطيب – الطبعة العاشرة ١٤١٨ هـ.

(٣) بديع الزمان سعيد النورسي: الشعاعات، الشعاع الحادي عشر – الثمرة – المسألة الرابعة ، ص٢٥٢.

إن المثال التوضيحي السابق يشير إلى أن أعظم الواجبات التي يجب على الإنسان الاهتمام بها هي في الدائرة الصغرى والمتمثلة في الإيمان بالله سبحانه وتعالى التي ركز عليها جميع الأنبياء والرسل في دعوتهم للناس، وفي ذلك يقول المولى سبحانه وتعالى ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العَصْرِ: ١- ٣)

أقسم الله سبحانه وتعالى بالعصر، مشيراً إلى أن العامل الرئيس الأول في سعادة الإنسان هو إيمانه بالله سبحانه وتعالى، ولذلك يجب أن يكون هو محور اهتمامه، والكافر لا يمكن أن يذوق طعم السعادة الحقيقية أبداً حتى يؤمن بالله تعالى وأنذره بعذاب أليم في الآخرة، كما قال تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (طَهَ: ١٢٤-١٢٥)

فبذكر الله يطمئن القلب وينشرح الصدر، ويكون التوفيق من الله سبحانه وتعالى للمؤمن بأن يكون مهتماً بالواجبات والمسئوليات التي تقربه إلى الله عز وجل.

الجانب الثالث : الحشر

أشار الأستاذ النورسي إلى "أن عقيدة الآخرة هي أس الأساس لحياة الإنسان الاجتماعية والفردية، وأساس جميع كمالاته ومثله وسعادته".[1]

وأوضح أن الإيمان بالآخرة يساعد الأطفال والشيوخ والمراهقين والحياة العائلية في التعامل مع ما يحيط بهم تعاملاً يريح نفسياتهم، ويمنع الوساوس التي ترد على عقولهم. فيكون عمله ضمن خطة واضحة المعالم، فيعيشون في هذه الحياة بين الخوف والرجاء، فيخافون عذاب الله ويرجون في الوقت نفسه رحمة الله حتى تقودهم إلى جنة عرضها السموات والأرض، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

دار سوزلر بالقاهرة- دار زهير غنيم للنشر، المملكة العربية السعودية.

(١) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة العاشرة، ص١٠٢. دار سوزلر بالقاهرة- دار زهير غنيم للنشر، المملكة العربية السعودية.

أثبت الأستاذ النورسي في الكلمة العاشرة أن "مسألة الحشر حقيقة راسخة قوية بحيث لا يمكن أن تزحزحها أية قوة مهما كانت حتى لو استطاعت أن تزيح الكرة الأرضية وتحطمها".[1]

والقرآن الكريم أثبت ذلك في كثير من الآيات منها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (الْحَجّ: ١)، ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾ (النِّسَاء: ٨٧)، ﴿وَلِلهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النَّحْلِ: ٧٧)

إذا وقر الإيمان بالآخرة والحشر في القلب، فإن المؤمن يعلم علم اليقين أن هناك ملكان يسجلان جميع أعماله، لتكون المحاسبة على ضوء ذلك ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزَّلْزَلَةِ: ٧-٨)

إن الإيمان بالقدر والجزء الاختياري يساعدان الإنسان على فعل الخيرات ويحملانه المسئولية في ارتكاب الأعمال السيئة. ولما كان عمر الإنسان قصير، والواجبات كثيرة منها الأساسية والفرعية. فالاهتمام ينصب بالواجبات الأساسية وأهمها الإيمان بالله، ليكون عند المؤمن صورة واضحة لأداء المسئوليات المناطة به. أما اليقين بحدوث الحشر، فإنه يزيد من شعور الإنسان بالمسؤولية الملقاة على عاتقه فيقبل على الخيرات ويبتعد عن المنكرات، وبذلك يكون للإيمان دورا في التأهيل للشعور بالمسئولية وتطوير محاسبة النفس. وآخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المصادر والمراجع

١) القرآن الكريم.

٢) الوافي في شرح الأربعين النووية – الحديث الثاني – مصطفى البغا ومحي الدين مستو – دار الكلم الطيب – الطبعة العاشرة ١٤١٨ هـ.

٣) مستدرك الوسائل – الجزء ١١ – باب ٦ – استحباب التخلق بمكارم الأخلاق ص ١٨٧.

٤) بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور. ترجمة إحسان قاسم الصالحي دار سوزلر بالقاهرة- دار زهير غنيم للنشر، المملكة العربية السعودية – الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.

(١) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة العاشرة، ص٩٥. دار سوزلر بالقاهرة- دار زهير غنيم للنشر، المملكة العربية السعودية.

الإيمان وتجلياته في إسعاد الإنسان
وحل إشكالات المدنية المعاصرة
مقاربة في فكر بديع الزمان سعيد النورسي

أ.د. يحيى الشيخ صالح(*)

يعيش الإنسان المعاصر - ومن خلاله المدنية المعاصرة - حالة متردية من القلق والاضطراب، لا تبدو معالم لنهايتها، أو فتورها وخفوتها، على الأقل، بل هي في تصاعد مستمر، متزايد بشكل تناسبي طردي مع مقدار توغل تلك المدنية في التقدم العلم والتكنولوجي.. فبقدر ما تزداد رفاهة الإنسان وراحته المادية، بفضل العلم ومخترعاته.. بقدر ما يتعمق شقاؤه النفسي وتتقلص سعادته وطمأنينته.. حتى أصبحت الحياة شرا محتوما يُتجرَّع بمرارة، أو يُهرَب منه بأنواع من الانتحار المباشر وغير المباشر، بدلا من أن تكون نعمة تُتذوَّق في بهجة ورضا.. وأصبحت سمة الحياة المعاصرة: الصراعات والحروب، والقلق والخوف، وانعدام الثقة والأمن .. بدلا من أن تجنح للسلام، والتعايش الكريم بين مختلف مكونات العالم من أجناس وديانات وحضارات.. بل، وأيضا، بين كل أولئك وما في الكون من حيوانات وجمادات.. سخرها الله للإنسان، فأصبح يعيث فيها فسادا، حتى أصبح لسان حالها الفصيح يقول: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ (الروم: ٤١)

حال الأفراد بين بعضهم البعض كحال الأمم والدول والشعوب.. توتر وترقب وخوف يملأ القلوب، خوف من المجهول، ومن المعلوم، الخوف من كل شيء، حتى أصبح الخوف حقيقة قائمة تنخر النفوس، وتقض المضاجع، وتعكر الأجواء..

ما يعمق هذه المأساة الإنسانية، ويؤشر إلى خطورتها هو عموميتها وشموليتها، فهي ليست مثل الأزمات التي عرفتها الإنسانية على امتداد عصورها، والتي يمكن إيعازها إلى

(*) جامعة منتوري-قسنطينة-الجزائر. yachsa@gmail.com

مستويات مختلفة: اقتصادية وسياسية وثقافية..وغيرها، والتي كانت تمس فئات دون أخرى، مما يجعل أسبابها مصنفة واضحة المعالم، وتجاوزها أوعلاجها معروفا، مثل مشاكل الفقر والتخلف، والسيطرة والاستعمار...

أزمة العالم اليوم أزمة من نوع آخر، لأنها لم تستثن حتى أكثر البلدان والمجتمعات تقدما علميا ورفاهية، وتطورا علميا، ومستوى اقتصاديا رفيعا، يوفر أسباب الراحة ومتطلبات العيش الكمالية.. بل لعل تلك المجتمعات والبلدان أكثر انغماسا في الأزمة، وتجلياتها أكثر تأثيرا فيها، إذ أخفق التقدم العلمي فيها في تحقيق سعادة الإنسان وطمأنينته.

إن ما يعطي خصوصية أعمق لهذه الأزمة كونها تتمرد على المقاييس العامة للتمكن والقوة والغلبة، وتوفُر الإمكانات.. فلم يعد الضعيف وحده الذي يخاف القوي، ولا الذي يعدم أدوات التأثير ووسائل الرد وحده يخاف صاحب الإمكانات والوسائل.. بل إن القوي أصبح يخاف الضعيف الذي تتجلى "إمكاناته" - في أدنى صورها- في قدرته على سلب طمأنينة القوي، وتعكير أجواء حياته.. مما يجعل من إمكانات هذا الأخير و"امتيازاته" التقليدية أمرا ناقص الجدوى، ونعمةَ لا يحسد عليها في كل الأحوال.

باختصار، نقول : إن البشرية اليوم، بعد أن قطعت شوطا كبيرا في حربها ضد أعدائها التقليديين: الفقر والجهل والمرض، وبعد أن حققت للإنسان الافتراضي بتقدم العلوم والمخترعات، حياة نوعية لم تكن تراوده حتى في أحلامه في عصور غابرة... تجد نفسها لم تحقق تقدما - إن لم تكن قد سجلت تقهقرا وتأخرا - في مجال إسعاد الإنسان، وتوفير طمأنينة له، تمنحه - على الأقل- شعورا بالأثر الإيجابي لما حصل من تقدم وتطور، وتمده بفرصة تملّي تجليات الحياة المعاصرة، وتذوقها، وصولا إلى استمرائها.

مسار المدنية المعاصرة يسجل انحرافا لا يخفى عن عين أي متأمل لم يتلوث تفكيره بذلك الانحراف، مفاده أن تقدمها كان أحادي المنحى، لم يتجاوز عالم المادة، إلى عالم النفس والقيم، واختصر الإنسان في بعده الجسدي، مهملا جانبه النفسي والروحي الذي هو أساس إنسانيته وتفرده، وتميزه عما عداه من مخلوقات.. ولعل الأدهى أن التقدم العلمي والتكنولوجي لم يهمل الجوانب الروحية والقيمية للإنسان فحسب، وإلاّ لهان الأمر، بل إنه كان معولا للقضاء عليها، بما وفره من وسائل لم

تتسلح بالأخلاق والقيم الإنسانية، فكان تدميرها شديدا، فأضحت مشاكل "العلم" المنفلت من الأخلاقيات أكبر مشاكل البشرية وأقسى تحدياتها، وقد تصل حد التأثير السلبي والنوعي عليها (الفناء) إن لم يتم تدارك الأمر وتصحيح المسار، إن نظرة إلى الواقع المعاصر لتثبت "جهالة العلم" (بمعنى السفه والطيش) التي تثبتها عناوين بارزة، لا تفتأ تتعمق دلالاتها وتأثيراتها المأساوية على الإنسان وعلى كوكبه الجميل من: أسلحة فتاكة ما كان ينبغي لها أن تخترع أصلا، حتى لا نتحدث عن توظيفها واستعمالها!! ومن تأثيرات سلبية على الطبيعة والمخلوقات أسبابها التطور التكنولوجي والصناعي..

ولعل من العلمية والمنهجية أن لا نتحدث عن عالم المدنية والتطور التكنولوجي كما نراه بعيوننا فحسب، لذلك نترك واحدا من أبنائه، ومن ألمع علمائه (رينيه دوبوا "RENE DUBOIS" الحائز على جائزة نوبل للسلام) يحلل لنا الوضع هناك، ويلخص مجمل إشكالات المدنية العاصرة، يقول:

«ومن التناقض أن يكون عصر الرفاه والعجائب التكنولوجية والمعجزات الطبية هو أيضا عصر الأمراض المزمنة والقلق واليأس، وظهرت أعراض "الغثيان الوجودي" أي "القرف من الحياة" في عقر دار مجتمعات الرفاه المادي وفي أكثر أجزاء العالم تقدما تكنولوجيا، وتتكاثر في هذه المجتمعات مشاكل فكرية شديدة، كالنزاع العنصري والفقر المادي والعزلة العاطفية والقباحة المدنية في الحواضر الكبرى، والمظالم بكل أشكالها وأنواعها، والجنون الذي يسبب تهديدا دائما بالحرب النووية. والجذور العميقة للقلق المعاصر موجودة في البنية النفسية للفرد – كل فرد- من أفراد هذه المجتمعات، وأكبر مشكلة حادة في الحياة المعاصرة هي في الغالب شعور الإنسان أن الحياة قد فقدت معناها، فالمشاعر الدينية والتقاليد الاجتماعية القديمة تنخرها المعلومات العلمية وسخافة الأحداث العالمية الباطلة (...) وبما أن فكرة الإله كانت ترمز لوحدة الكون بمجموعه: الخلق والمخلوقات، لذا يبقى الإنسان الآن بدونها كسفينة بلا مرساة، لا قرار له (...) والبحث عن معنى وصياغة مفاهيم جديدة لكلمتي "الله" و"الإنسان" ربما يكون أفضل ما يجب أن ينشغل به الآن عصر القلق والغربة النفسية..»[1].

(١) رينيه دوبوا: إنسانية الإنسان، نقد علمي للحضارة المادية، تعريب: د. نبيل صبحي الطويل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص: ٤٧.

مما تقدم من تحليل خاطف يتبين لنا أن مشكلة المدنية المعاصرة مشكلة أخلاقية، بالدرجة الأولى، بل كل مآسيها بدون استثناء تعود إلى هذا الجانب، بعد أن تكفل التقدم العلمي في الجانب المادي بتحسين الحياة وتحقيق الرفاهة للإنسان .

لكن الحديث عن الأخلاق هو، في الواقع، حديث عن نتيجة، تتطلب البحث عن السبب الأول الذي بدونه، لن تكون، ولن تعرف إلى الحياة الإنسانية سبيلا، إنه أساس كل الأخلاقيات، والحل الأمثل الوحيد لكل مشكلات الإنسان في العالم المعاصر، إنه "الإيمان"، إذ "ليس للحياة معنى إلا بالاعتقاد في وجود إله"[١]

الإيمان، هو الآخر، يتجلى على مستويات وفي درجات.. لكنه عند التمعن في حقيقته، نراه يتفرع عن جذع صلب إليه تعود كل الفروع والأغصان وأوراقها الحية الخضراء، هو "الإيمان بالله" وما يتبعه، مما شرعته الكتب السماوية الصحيحة وأكمله الإسلام : ﴿ قُولُواْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٦).

« والحقيقة أن السعادة لا توجد إلا بالإيمان العقلي الذي يعتبر أكبر عامل نفساني لتحقيق السعادة (...) ذلك لأن الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى واليقين بألوهيته (...) يجعلان الإنسان يدرك بأن كل أمر صغير أوكبير هو بيد الله تعالى (...) وعندما يركن الإنسان بهذا التوجه إلى رعاية الله ربه (...) فإن ذلك كله يؤمّن له الراحة والأمان النفسي، ويجعله يشعر بالسعادة (...) فالإيمان الصادق هو العامل الأول والأخير في تحقيق السعادة.. »[٢].

في ظل الإشكالية المتقدمة للمدنية المعاصرة، يطل علينا المفكر الإنساني الخالد بديع الزمان النورسي، مقدما قراءة متفردة للإسلام، أساسها "الإيمان"، تنم عن أخلاقيات الرجل، ومنطلقاته في تفسير القرآن ورسم صورة حية للإنسانية في ظل الإسلام، ذات ملامح مشرقة وضاءة، دعائمها: الإيمان والحب والحق والخير

---

(١) روجيه جارودي:حفارو القبور الحضارة التي تحفر للإنسانية قبرها، ترجمة: عزة صبحي، ط٣، دار الشروق،القاهرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م ، ص:١١.

(٢) سميح عاطف الزين: علم النفس معرفة النفس الإنسانية في الكتاب والسنة، المجلد٢، دار الكتاب اللبناني / دار الكتاب المصري، ١٤١١ هـ / ١٩٩١م . ص ٣١٩ .

والجمال.. وسعادة فردية تحقق سعادة إنسانية، ومنهجية شاملة كفيلة بمسح آلام الإنسانية والإنسان..

وجه التفرد في كتابات النورسي ما يلمسه المتصفح لنتاجه من جنوح نحو الإفهام والتبسيط، بكثير من المحبة والمشاعر الإنسانية التي تشكل خلفية واضحة لكل كتاباته، مما يأخذ بقلب القارئ قبل عقله، ويشعره بأواصر مودة عميقة بينه وبين الكاتب، مؤشراتها النصح والإخلاص والمحبة، حتى ليخيل إليه أنه يقرأ رسالة شخصية من كاتب تربطه به أواصر محبة قديمة عميقة، وأنه يعرفه حق المعرفة، فأسلوبه يتجاوز حدود الكلام العقلي الجاف عند كتاب آخرين، إلى شحنات تنضح بعواطف جياشة بالحميمية والمودة وحب الخير.. الشيء الذي يجعل ذلك القارئ - بطريقة لاشعورية - يفتح قلبه، ويتأثر بما يقرأ، إلى حد درجة تبنيه والدفاع عنه.. لأنه، ببساطة، ليس كلام كاتب أوداعية أوعالم مما يقرؤه هنا وهناك، بل هو مناجاة صديق حميم، سماته المحبة والوفاء والإخلاص.. مما يؤشر، في الأخير، إلى حقيقة مفادها أن النورسي يصدر في كتاباته، عن إيمان عميق شكَّل شخصيته، وهذب أخلاقه، الشيء الذي يجعل من تناول قضية "الإيمان ودوره في إسعاد الإنسان" في فكره، أمرا له أكثر من سببٍ وداع، حيث يتجلى النورسي مفكرا إسلاميا إنسانيا، مؤمنا فكرا وعملا.

في عالم النورسي يتجلى الإيمان عمودا فقريا ينظم الحياة البشرية، في كل مراحلها الدنيوية والأخروية، «فلا توجد مسألة كونية تزيد أهميتها على مسألة سر الإيمان الذي هو أعظم مسألة لهذا الكون واكبر سر في خلقة العالم »[١].

إن قيمة الإيمان لا تنبع من دوره الأخروي فحسب، بل أيضا من دوره في سعادة الدنيا، بجعل المؤمن يعيش في جنة معنوية من الرضا والطمأنينة، مجنبا إياه الجحيم المعنوي في الحياة، الناتج عن القلق والضياع.. «إن في الإيمان حّقًا جنة معنوية، وإن في الضلال جحيمًا معنويًا أيضا في هذه الدنيا»[٢]

الإيمان ضرورة للحياة الدنيا ،لأن في انعدامه شعورا بألم قاتل ينغص الحياة، وهو في هذا يختلف عن كل الانحرافات والمعاصي الأخرى، «لأن عدم الإيمان لا يشبهه

---

(١) سعيد النورسي: سيرة ذاتية - ص: ٢٥٣

(٢) سعيد النورسي: صيقل الإسلام/الخطبة الشامية - ص: ٤٨٦

أمر، فلربما توجد لذة شيطانية منحوسة في ارتكاب الظلم والفسق والكبائر إلا أن عدم الإيمان لا لذة فيه إطلاقا، بل هو ألم في ألم، وعذاب في عذاب، وظلمات بعضها فوق بعض»[١].

لذلك كانت لذة الإيمان هي اللذة الحقيقية في الدنيا، وآلام الضلالة هي المنغصات الحقيقية السالبة صفاء الحياة وسعادتها.. «واعلمن يقينا أن اللذة الحقيقية في هذه الدنيا إنما هي في الإيمان وفي حدود الإيمان .وأن في كل عمل صالح لذة معنوية، بينما في الضلالة و الغي آلاما منغصة في هذه الدنيا أيضًا»[٢].

الإيمان يحقق إنسانية الإنسان، وينأى به عن الحيوانية واللامعنى، برفعه إياه إلى مرتبة الخلافة في الأرض، وترقيته إلى درجة متلقي الخطاب الإلهي، وبدون ذلك لا يبقى إلا الجانب المادي الذي يشترك فيه مع كل الحيوانات الأخرى، إنه وسيلة لعقد الصلة بينه وبين خالقه، ونيل شرف الانتساب إليه، والتمتع، تبعا لذلك، بكل إيجابيات ذلك الانتساب، من تجلي آيات الخالق الكامنة فيه، ومن الظفر بالسعادة الأبدية والضيافة في الجنة:

«الإيمان - الذي هو عبارة عن الانتساب إلى الصانع سبحانه - يقوم بإظهار جميع آثار الصنعة الكامنة في الإنسان، فتتعين بذلك قيمةُ الإنسان على مدى بروز تلك الصنعة الربانية، ولمعان تلك المرآة الصمدانية. فيتحول هذا الإنسان - الذي لا أهمية له - إلى مرتبة أسمى المخلوقات قاطبة، حيث يصبح أهلاً للخطاب الإلهي، وينال شرفاً يؤهله للضيافة الربانية في الجنة.. »[٣].

هذه النتيجة الأولية للإيمان، لا ريب أنها ستهيئ الإنسان لتحمل الرسالة، وتنأى به عن العبثية واللاجدوى، وتمنح حياته معنى لاتصالها بالله، من أهم متطلباته فعل ما يرضي الله، وترك ما يغضبه، أي التخلق بالأخلاق الإيمانية بشكل عام، ومن هذه المرحلة، سيظفر ذلك المؤمن بجملة من "الامتيازات والاستفادات" التي هي نتاج إيمانه، منها:

---

(١) سعيد النورسي: سيرة ذاتية - ص: ٢٠٥

(٢) سعيد النورسي: اللمعة الرابعة والعشرون - ص: ٣١٣

(٣) سعيد النورسي: الكلمة الثالثة والعشرون - ص: ٣٤٩

القوة والأمان :

يشعر المؤمن بقوة تملأ جوانحه، وتمنحه القدرة على تحدي كل الصعاب وحوادث الدنيا، لأنه يحس أنه في حمى قدرة القادر الأحد، فيوكل إليه أمره، ويستمد العزيمة من عنده، وبذلك تزول عنه أسباب التفكير السلبي، والمواقف الانهزامية، ويحقق في حياته ما لا يحققه الآخرون، ولا يخفى ما في الشعور بكل ذلك من راحة نفسية وطمأنينة بال، على مستوى العيش الدنيوي، إضافة إلى ما يعمقهما بإيمانه بما ينتظره في نهاية المطاف من سعادة أبدية .. فـ «كما أن الإيمان نورٌ وهو قوةٌ أيضا. فالإنسان الذي يظفر بالإيمان الحقيقي يستطيع أن يتحدى الكائناتِ ويتخلصَ من ضيق الحوادثِ، مستنداً إلى قوةِ إيمانه فَيبحرُ متفرجاً على سفينة الحياة في خضم أمواج الأحداث العاتية بكمال الأمان والسلام قائلاً: تَوكَّلتُ على الله، ويسلّم أعباءه الثقيلةَ أمانةً إلى يدِ القُدرةِ للقدير المطلق، ويقطعُ بذلك سبيلَ الدنيا مطمئنّ البال في سهولةٍ وراحةٍ حتى يصل إلى البرزخ ويستريح، ومن ثم يستطيع أن يرتفعَ طائراً إلى الجنة للدخول إلى السعادة الأبدية»[١]

وبتأملنا في تاريخ البشرية، نلحظ بوضوح تأثير هذا العامل الإيماني في العظماء الذين تركوا بصماتهم في التاريخ، فأهم صفاتهم الإيمان العميق، والتوكل على الله الذي يمنحهم قوة التحدي والاستمرار، وعدم اجترار الآلام، والتخلص من الخوف، وما ينتج عنه من أمراض فتاكة، شاعت في المدنية المعاصرة نتيجة ضعف الإيمان أوانعدامه، ولنا الأسوة الحسنة في رجلين أعزلين هربا من بطش قومهم وما لهم من أبطال وفرسان وأسلحة.. ففي الوقت الذي كان أحدهما (رضي الله عنه) يرى ويسمع المكلفين بقتلهما ويفكر- دونما جزع أوخوف - في إمكانية وقوعهما بأيدي الأعداء، كان الثاني (صلى الله عليه وسلم) يذكره بالقوة التي تحميهما، قائلا له: "لا تحزن إن الله معنا"[٢] وكانت نتيجة ذلك سكينة غمرتهما، وسلامة تامة من تداعيات الخوف والقلق، وإصرار على مواصلة تحدي الظلم والطغيان وانعدام الإيمان.. وبإمكاننا أن نتساءل – بكل روح علمية، وبدون تجن على الحقائق أو تجاوز للمنطق والواقع – عما سيحدث لو أن مثل

---

(١) سعيد النورسي: الكلمة الثالثة والعشرون - ص: ٣٥٢

(٢) تصف المشهد الآية الكريمة: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٤٠)

ذلك حدث لرجلين في عالمنا المعاصر، لا يملكان أي إيمان، لاشك أن النتيجة ستكون هلعا يؤدي إلى روع شديد، قد تكون نهايته اختلالا نفسيا، أوأزمة صحية ..

التوكل مع الأخذ بالأسباب:

هذان العاملان قد يبدوان متناقضين في نظر ضعاف الإيمان، المنتمين إلى طرفين متناقضين أيضا، أحدهما يفسر التوكل على أنه خمول وعجز واستسلام أمام الأحداث، فيفقد لذة العمل والمبادرة، وتسيطر عليه العدمية، والآخر لا يرى في التوكل إلا عبثية، ولا يؤمن إلا بالأسباب التي توقعه في شرَك الغرور إن أصابت وحققت نتائج، وفي الحزن ولوم النفس وتحميلها مسؤولية التقصير في حال فشل أسبابه عن تحقيق الهدف، وكلتا النتيجتين مضرة مؤدية إلى القلق والاضطراب.

وإذا وازنا بين العاملين المذمومين: التوكل دون الأخذ بالأسباب، والأخذ بالأسباب بعيدا عن التوكل، رأينا أن الأول لا يعدم أساسا من الإيمان، غير أنه مبالغ فيه، وبحاجة إلى تصحيح، بينما الثاني فهو الأخطر، لأن منطلقه غير إيماني البتة، باستبعاده القدرة الإلهية التي يعود إليها الأمر في كل شيء، بما في ذلك الأسباب ونتائجها.

عند النورسي نجد التفسير الصحيح لإشكالية التوكل والأخذ بالأسباب من منظور إيماني إسلامي: «فالإيمان إذن يقتضي التوحيدَ، والتوحيدُ يقودُ إلى التسليم، والتسليم يُحقق التوكلَ، والتوكلُ يسهّل الطريقَ إلى سعادة الدارَين. ولا تظنن أن التوكل هو رفضُ الأسباب وردّها كلياً، وإنما هو عبارةٌ عن العلمِ بأن الأسبابَ هي حُجُب بيَدِ القدرة الإلهية، ينبغي رعايتها ومداراتها، أما التشبثُ بها أو الأخذ بها فهو نوعٌ من الدعاء الفعلي. فطلبُ المسَبَّباتِ إذن وترقّب النتائج لا يكون إلا مِن الحقِّ سبحانه وتعالى، وأنّ المنةَ والحمدَ والثناءَ لا ترجعُ إلا إليه وحدَه»[1].

وكعادة النورسي في كل تحليلاته، نراه يركز على الجانب النفسي ونتائجه الايجابية أوالسلبية، فيسجل أن من حسنات التوكل الصحيح التخلصَ من الحاجة ومن تسوُّل ما في أيدي الآخرين، ومن الهلع أمام الحادثات (بتحميل المعني نفسَه مسؤوليةَ تلك الأحداث كما أشرنا) ومن الرياء والشقاء ومضايقات الدنيا.. ويبدو من الكلمات المترادفة، ثقيلة الدلالات، مدى استنكار النورسي لانعدام التوكل، واستهجانه إياه،

(١) سعيد النورسي: الكلمة الثالثة والعشرون - ص: ٣٥٣

ولعل كل ذلك راجع إلى أن دلالته الأقرب إلى الإدراك تعني عدم الاعتراف بسلطة الخالق وقدرته، والاعتداد بقدرة العبد، مما يعني توجها نحو الظلم العظيم، جزاؤه "الشقاء الأبدي".

«فيا أيها الإنسان البعيدُ عن التوكل! ارجع إلى صوابك وعُد إلى رُشدك (...) وتوكّل على الله لتتخلص من الحاجة والتسوّل من الكائنات، ولتنجوَ من الارتعاد والهلع أمام الحادثات، ولتنقذَ نفسَك من الرياء والاستهزاء ومن الشقاء الأبدي ومن أغلال مضايقات الدنيا»[1].

راحة الدعاء:

التضرع إلى الله ورفع الدعاء إليه مؤشر إلى الإيمان العميق، وهو موقف مكمّل للتوكل الذي رأينا، فبعد الإيمان يأتي التوكل، وبعد التوكل يأتي الدعاء تأكيدا له، ويستحيل أن يصدر الدعاء عن غير المتوكل،أي المعتمد على الأسباب.

فوائد الدعاء كثيرة للمؤمن، منها تعميق العبودية لله بالتضرع، ومنها الشكر.. ويهمنا هنا دوره في إشاعة الراحة والرضا في نفس الداعي، بشعوره بوثوق الصلة بينه وبين الخالق المهيمن، كيف لا، وهو يناجيه ويدعوه ويتضرع إليه، بشكل مباشر مفتوح، وبدون وساطة، وفي أي وقت.. مما يُشعر الإنسانَ بأهميته وحظوته عند ربه، فيمتلئ سعادة وحبورا، ويطمئن إلى أن قضاياه بين يدي مقتدر مهيمن عادل، يقدِّر الدعاء، بل يعبأ بالمرء بسببه[2]:

« وحيث إن الإنسان متعرضٌ لما لا يحصى من أنواع البلايا والمصائب ومهاجمة الأعداء لما يحمل من عجزٍ مطلقٍ. وله مطالبُ كثيرةٌ وحاجاتٌ عديدة مع أنه في فقرٍ مدقع لا نهاية له؛ لذا تكون وظيفتُه الفطريةُ الأساس "الدعاءَ" بعد الإيمان»[3]

وكعادة النورسي، الرافع دوما، شعار الحكمة واللطف والموعظة الحسنة المغرية، نراه ينادي الإنسان ناصحا إياه بالدعاء، وهل من نداء أكثر إغراء من أن ننادي على عاجز فقير بأنّ بين يديه مفتاحَ خزينة فلا ينبغي أن يتخلى عنه ؟؟ وهل من بشرى أعمق

---

(١) المصدر نفسه – ص: ٣٥٤

(٢) يقول تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ (الفرقان:٧٧)

(٣) سعيد النورسي: الكلمة الثالثة والعشرون – ص: ٣٥٥

للمعانين من الصراعات النفسية، وآلام الإحساس بالضياع، والانسحاق تحت وطأة المشكلات وضغوط الحياة.. من أن نقدم لهم وصفة توصَف بأنها "مصدر قوة متينة" ؟؟ إنه النورسي الإنساني ينادي الإنسان:

«فيا أيها الإنسان العاجز الفقير! إياك أن تتخلّى عن مفتاح خزينةِ رحمة واسعة ومصدر قوة متينة، ألا وهو الدعاءُ. فتشبَّث به لترتقيَ إلى أعلى عليي الإنسانية»[1]

دفء المحبة والتواصل مع الكون:

من ميزات الإسلام أنه دين المحبة والتسامح والأخوة، كما يمتاز بنزعته الإنسانية الواسعة، فالبشرية إخوة، لا تفرق بينهم حدود الأوطان والأجناس واللغات والألوان.. ولا اختلافاتهم الطبقية والجنسية، بل لا يوجد أكثر من مقياس واحد للتمييز وتحديد الفروق، وهو التقوى بالتعبير القرآني، بكل ما تحمله اللفظة من معاني الإيمان والعمل الصالح في مجالات الاعتقاد والقول والعمل.. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

بالإيمان يتجلى كل شيء مغلَّفا بالمحبة، ابتداء من محبة الله المفضية إلى عبادته، وانتهاء بمحبة كل ما في الكون من مخلوقاته على أساس ابتغاء رضاه، أي "الحب في الله"، ولعل مما يملأ قلب الإنسان غبطة وسعادة أن يعلم أن المحبة سبب وجود الكائنات، وأنه جزء من تلك الكائنات، وأن عليه أن يحبها باعتبار ذلك جزءا من العبادة، ذلك ما يثبته سعيد النورسي بقوله مخاطبا نفسه:

يا نفسي المحبة لنفسها، ويا رفيقي العاشق للدنيا!

اعلمي! أن المحبة سبب وجود هذه الكائنات، والرابطة لأجزائها، وأنها نور الأكوان، وحياتها.

ولما كان الإنسان أجمع ثمرة من ثمرات هذا الكون، فقد أدرجت في قلبه - الذي هو نواة تلك الثمرة - محبة قادرة على الاستحواذ على الكائنات كلها. لذا لا يليق بمثل هذه المحبة غير المتناهية إلا صاحب كمالٍ غير متناهٍ»[2].

---

(١) المصدر نفسه، ص: ٣٥٨

(٢) سعيد النورسي: الكلمة الرابعة والعشرون - ص: ٤١٠

لعل من أهم آثار المحبة في الله التخلق بأخلاقيات سامية، ما كان للإنسان أن يقتنع بالتحلي بها لولا الإيمان الذي يَعِدُه بأجر عليها، ذلك لأنها تتناقض مع ما في النفس البشرية من أنانية وجشع وحب للذات.يقول النورسي:

« إن أجدر شيء بالمحبة هو المحبة نفسها. وأجدر صفة بالخصومة هي الخصومة نفسها. أي أن صفة المحبة التي هي ضمان الحياة الاجتماعية البشرية والتي تدفع إلى تحقق السعادة هي أليق للمحبة، وان صفة العداوة والبغضاء التي هي عامل تدمير الحياة الاجتماعية وهدمها هي أقبح صفة وأضرها وأجدر أن تُتجنب وتُنفَر منها»[١].

قد يبرر الإنسان ما فيه من نقص المحبة للآخرين باختلافهم عنه في تفكيره، مما يجعلهم في نظره أهلا للكره والبغضاء، فتمتلئ نفسه كرها وبغضاء، ويتعكر صفو حياته، وتتقلص سعادته وطمأنينته.. وهذا تصور خاطئ، يؤشر إلى قصر نظر، وسوء فهم للاختلاف والتعدد الذي بررره الإسلام ورآه أمرا عاديا، بل من سنن الله في المجتمعات...[٢]

الأمر عند النورسي أعمق من مجرد الاختلاف الذي قد يتساوى أمامه الناس.. لكنه الخطأ الذي يراود الذي يبدو له أنه على الحق وغيره على الباطل، فلا ينبغي له أن ينساق وراء رؤيته لنفسه، ولا أن يبرر بها بغض الآخرين وكرههم، فـ«عندما تعلم أنك على حق في سلوكك وأفكارك يجوز لك أن تقول: "إن مسلكي حق أو هو أفضل" ولكن لا يجوز لك أن تقول: "إن الحق هو مسلكي أنا فحسب". لأن نظرك الساخط وفكرك الكليل لن يكونا محكاً ولا حكماً يقضي على بطلان المسالك الأخرى »[٣]

قد يكون وراء البغضاء سبب خفي كالحسد الذي ينهش الصدور ويحوّل نعيم الكثير إلى جحيم، وصفاءهم إلى قلق وكدر وتعاسة.. لأنه «إن نشأت العداوة من الحسد فدونه العذاب الأليم، لأن الحسد أشد إيلاما للحاسد من المحسود حيث يحرق صاحبه بلهيبه، أما المحسود فلا يمسه من الحسد شيء، أو يتضرر طفيفاً (...) ثم إن الحاسد في حسده يسخط على قدر الله، لأنه يحزن من مجيء فضل من الله ورحمته على محسوده، ويرتاح

---

(١) سعيد النورسي: صيقل الإسلام/ الخطبة الشامية – ص: ٥٠٩

(٢) في القرآن أكثر من آية تشير إلى أن الاختلاف من سنن الله في خلقه، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: ١١٨)

(٣) سعيد النورسي: المكتوبات: المكتوب الثاني والعشرون – ص: ٣٤٢

من نزول المصائب عليه، أي كأنه ينتقد القدر الإلهي ويعترض على رحمته الواسعة. ومعلوم أن من ينتقد القدر كمن يناطح الجبل، ومن يعترض على الرحمة الإلهية يُحرم منه »[١].

المحبة الناتجة عن الإيمان في الإسلام تتجاوز في عمقها، وفي بعديها الأفقي والعمودي أية محبة في أية فلسفة أوفكر.. لأنها لا تتوقف عند حب الإنسان للإنسان، بل تتجاوزه إلى حب الكون، بكل ما فيه من عوالم ومخلوقات، بما فيها الحيوانات المختلفة، والطيور وحتى الحشرات!! مما يجعل الإنسان يشعر بالتواصل مع كل شيء، وبالحياة في وسط مفعم بالحميمية المطلقة، وهو ما يضفي على حياته ثراء، وعلى نفسه سعادة وطمأنينة.. كيف لا وكل ما على الأرض، مما يدب أو يطير بجناحيه، عبارة عن أمم تماثل الأمة الإنسانية، في أنها تعرف الله وتعبده.."[٢] حسب تفسير ابن عطية، وفي أنها "محفوظة أحوالها، مقدرة أرزاقها وآجالها"[٣] كما ذهب إليه يحيى حقي.. وكل ذلك مكانة مرموقة لما يسمى بالحيوان يضمنها القرآن: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام: ٣٨)

النورسي منح هذا الجانب كثيرا من الاهتمام، فحلله بأسلوبه الشيق وحميميته الطافحة، على مدى صفحات طويلة من كتاباته.. معلّلا تلك المكانة لغير الإنسان، التي أوجبت على هذا الأخير حبه والتعامل معه بإنسانية ورحمة، بعوامل عدة، أهمها تَساوي الجميع في القيام بما سخر له من إثبات وحدانية الله وقدرته، وعبادته، كل بطريقته الخاصة، والتسبيح بحمده، وإن بطرق لا يفقهها البشر..[٤]، يقول النورسي:

---

(١) المصدر نفسه، ص: ٣٤٤

(٢) أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، ٢٠٠١. ج٢، ص: ٢٨٩ .

(٣) تفسير روح البيان: إسماعيل حقي البروسوي، المطبعة العثمانية، ١٣٣٠هـ، إستانبول ، الجلد: ٣، ص: ٢٧.

(٤) في القرآن الكريم أكثر من آية تشير إلى تسبيح المخلوقات: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٤)

فمثلا: البلبل المعروف بعاشق الورود والأزهار (...) مأمور ومكلّف - باسم القبائل الحيوانية - بإعلان شدة العلاقة تجاه طوائف النباتات (...) موظف بإعلان الفرح والسرور، والترحيب بالهدايا المرسلة من قبل الرزاق الكريم، حيث إنه خطيب رباني يسأل بتغريده أرزاق الحيوانات - ضيوف الرحمن - المحتاجين إلى الرزق..[ومن معاني تغريده] إظهار حسن الاستقبال على رؤوس النباتات جميعاً، تعبيراً عن إرسال النباتات أمدادا لبني جنسه من الطير والحيوان. [و] بيان شدة حاجة الحيوانات إلى النباتات التي تبلغ حدّ العشق تجاه الوجوه المليحة للنباتات وإعلانها على رؤوس الأشهاد.[ثم] تقديم ألطف تسبيح إلى ديوان رحمة مالك الملك ذي الجلال والإكرام في ألطف شوق ووجد، وفي ألطف وجه، وهو الورد»[١].

توقُّفُ النورسي عند البلبل طويلا، ربما كان ناتجا عن "فصاحته" وجماليته.. لكنه يستدرك الأمر بالتذكير بأنه في "مهامه" لا يختلف عن كل المخلوقات الأخرى، حتى الحشرات.. فـ«لا تحسبنّ أن هذه الوظيفة الربانية في الإعلان والدلالة والتغني بهزجات التسبيحات خاص بالعندليب. بل إن لكل نوع من أكثر أنواع المخلوقات صنفاً شبيهاً بالعندليب، له فرد لطيف أو أفراد يمثلون ألطف مشاعر ذلك النوع ويتغنى بألطف التسبيحات بألطف السجعات، ولاسيما أنواع الهوام والحشرات، فبلابلها كثيرة، وعنادلها متنوعة جداً، تُمتّع جميع مَن له آذان صاغية إليهم بدءاً من أصغر حيوان إلى أكبره، وتنثر على رؤوسهم تسبيحاتها بأجمل نغماتها»[٢].

عبادة الله والتسبيح بحمده لا يقتصران على الكائنات الحية من حيوانات وحشرات وطيور.. بل يشملان أيضا كل النباتات، ذلك ما يتطرق إليه النورسي أيضا بشاعريته المعروفة.. فـ«كل طائفة من طوائف النباتات في مزرعة الأرض تسأل من فاطرها الحكيم وتدعوه بلسان الحال والاستعداد، قائلة: يا ربنا آتنا من لدنك قوة، كي ننصب راية طائفتنا في أرجاء الأرض كافة، لنعلن بلساننا عظمة ربوبيتك (...) وقس على هذا المنوال كيف تستنطق النباتات ألسنة كثيرة في ذكر الفاطر الجليل وفي تقديسه. فلقد خلق الفاطر الحكيم والقدير العليم، كل شيء في أحسن صورة، وفي أكمل انتظام،

---

(١) سعيد النورسي: الكلمة الرابعة والعشرون - ص: ٤٠٦

(٢) المصدر نفسه، ص: ٤٠٧

وجهّزه بأفضل جهاز، ووجّهه إلى أحسن وجهة، ووظفه بأحسن وظيفة، فيقوم الشيء بأفضل التسبيحات وأجملها، ويؤدي العبادات على أفضل الوجوه»[١]

المحبة الناتجة عن الإيمان لا يقتصر مفعولها على محبة الكائنات الحية في الكون، بل يشمل حتى محبة الجماد، الذي يرفعه إلى درجة الأصدقاء المؤنسين، حيث تصبح الأشجار والأحجار أصدقاء !! «نعم، إن نور الإيمان بالله سبحانه، والنظرة إلى الكون لأجله، يجعل الأشجار بل حتى الأحجار كأنها أصدقاء مؤنسون.. »[٢]

في هذا العالم المليء حبا وجمالا وتسبيحا.. لا يشعر المؤمن بالصراع مع قوى الطبيعة، ولا بخوفه من أخطارها مهما كانت مثل البراكين والأعاصير والزلازل - لأن كل ما تفعله إنما هو تسبيح على طريقتها، وبه تطيع خالقها، وتثبت قوته وعظمته - بل سيتعامل معها بمحبة بما أوتي من علم وخبرة وصبر يتعبد به، هو الآخر، ويضفي به جمالا وسكينة على نفسه.. «فإن كنت أيها الإنسان إنسانا حقاً، فلا تقحم الطبيعة والمصادفة والعبثية والضلالة في هذه الأمور الجميلة، ولا تشوّه جمالها بعملك القبيح، فتكون قبيحاً (..) ويا نفسي المحبة لنفسها، ويا رفيقي العاشق للدنيا! اعلمي! أن المحبة سبب وجود هذه الكائنات، والرابطة لأجزائها، وأنها نور الأكوان، وحياتها»[٣].

الآخرة أيضا تخدم الدنيا:

قد يصطدم هذا العنوان كثيرا من القراء، الذين يرون أن العكس هو الصحيح، لكن أقول: هذا صحيح أيضا، مثلما هو العكس صحيح، فالعلاقة بينهما جدلية تبادلية، وسأوضح ذلك في ما يأتي:

من المعروف في الأبجديات الدينية أن الدنيا مطية الآخرة، وأن الأولى مرحلة حرث وزرع والثانية جني وحصاد، بل إن فكرة الثواب والعقاب والجزاء إنما تقوم على هذا المفهوم أصلا، هذا شيء لا جدال ولا ريب فيه، لكن عندما ننظر إلى الأمر من زاوية نفسية تُعنى بتصيُّد ما يضفي على نفس الإنسان سعادة وسكينة ويخفف عنها آلام الأحداث وإشكالات الحياة.. (وهو لب موضوعنا هذا) فإننا سنرى الأمر مستقيما، والعنوانَ صحيحا، بل على درجة كبيرة من الدقة! فعديم الإيمان بالآخرة الذي لا يفكر

(١) سعيد النورسي: الكلمة الرابعة والعشرون، ص: ٤٠٩

(٢) سعيد النورسي: سيرة ذاتية، ص: ٢٢٣

(٣) سعيد النورسي: الكلمة الرابعة والعشرون، ص:٤١٠

إلا في أفق حياتي ضيق، ستصبح الدنيا هدفه الأساس من وجوده، حيث لا هدف غيره، وسيحاول أن يجعلها كاملة "سعيدة" لا يشوبها كدر أوتنغيص.. (وهذا منطقي جدا من منظوره الذي يراها هدفا وحيدا) الإشكال ليس هنا، لكنه في إمكانية تحقيق ذلك من عدمه !! .. وهنا مكمن الإشكال المعروفةِ الإجابةُ عنه بدون اختلاف، إذ لم يسجل تاريخ البشرية على طوله نموذج إنسان سالمته الحياة وكانت له كما يشاء، لقد ينجو من "نوع" من المنغصات لكن ليقع حتما في آخر أوأخريات، وما أكثرها من: فقر وجوع، وأوبئة وأمراض وهرم وموت، وكوارث طبيعية، وإنسانية: من خيانات وشرور وفساد.. والسؤال المطروح أمام كل ذلك هو: كيف سيشعر هذا الإنسان بالسعادة وهو يعاني من تعرض هدفه الوحيد ورأس ماله لانتهاكات الأحداث ومنغصاتها، ولا يملك إزاءها إلا التحسر والأسى، أوالانتهاء هما وحزنا.. ؟؟

الجواب موجود عند النوع الثاني من الإنسان، وهو المؤمن بالله واليوم الآخر، وفكرة الثواب والعقاب.. فمنطق هذا المؤمن في أساسه هو أن الآخرة هدفه الأساس، لأنها الخالدة والأضمن والنهاية.. وأن الدنيا مرحلة تزوّد وعبور، وأن قسوتها مهما كانت حِدّتها وشدتها فهي محتملة، (بل لذيذة عند عميقي الإيمان باعتبار ذلك رضا بقضاء الله)[1] مادامت وسيلة لهدف آخر، أوعلى الأقل هدفا من اثنين، وهذه النتيجة من الأهمية بمكان من منظور السعادة في الدنيا، ولعلها أهم عامل على الإطلاق يمكن أن يطعّم الحياة بالأمل والسعادة والرضا، أو يجعلها محتملة على الأقل، ثم إن لها دورا فعالا في محاربة الشرور والآثام وإيذاء الآخرين، مادام لذلك جزاء سيء ينتظر فاعليه، ولعل هذا العامل يمثل العمود الفقري لفكرة الإيمان بالآخرة وعلاقتها بالدنيا، مما جعل النورسي يتوقف عنده طويلا، بأسلوبه المعتاد، محللا مغريا، ومنبها نصوحا مخلصا، وينتهي إلى «أن كل من يجعل الحياة الفانية مبتغاه فسيكون في جهنم حقيقةً ومعنىً، حتى لو كان يتقلب ظاهراً في بحبوحة النعيم. وإن كل من كان متوجهاً إلى الحياة الباقية ويسعى لها بجد وإخلاص فهو فائز بسعادة الدارين وأهل لهما معاً حتى لو كانت دنياه سيئة وضيقة، إلا أنه سيراها حلوة طيبة، وسيراها قاعة انتظار لجنته، فيتحملها ويشكر ربه فيها وهو يخوض غمار الصبر..»[2]

---

(١) هناك درجات عدة للرضا بقضاء الله، أطال فيها العلماء، وبخاصة المتصوفة.

(٢) سعيد النورسي: الكلمة الثامنة ، ص: ٣٧

ونظرا لخطورة عامل تأثير الإيمان بالآخرة في الحياة الدنيا وجعلها مستساغة تلفها السكينة والرضا، الشيء الذي له أثر باهر في تغيير وجه الحياة بكاملها، ورسم السعادة والبسمة على وجهها، مما يشكل حلا جذريا لمشكلات المدنية المعاصرة، التي تعقدت حد انمحاء إنسانية الإنسان، وتحوله إلى وحش مفترس في غابة يسودها منطق القوة، لا قوة المنطق، نتيجة اعتبارها هدفا وحيدا يجب نيله بأي ثمن، مما أوقعها في كوارث لا حصر لها نتيجة الأنانية وإلغاء الآخر، وكانت النتيجة باختصار:شقاء الإنسان... أقول: نظرا لخطورة كل ذلك، نرى النورسي بعد تحليله الظاهرة – وعلى غير عادته في مناجاة الإنسان الفرد – يعمد إلى توجيه الخطاب للهيئات المؤثرة في توجيه الحياة المعاصرة، لأن الخلل يكمن فيهم، وفي "علومهم" المنفلتة من قيود الأخلاق والإيمان، وفي الفراغ الذي لا يملؤه إلا الإيمان، وفي جراح الإنسانية التي لن يضمدها سواه :

«فليُلقِ السمعَ علماء الاجتماع والسياسة والأخلاق من المعنيين بشؤون الإنسان وأخلاقه واجتماعه، وليأتوا ويبينوا بماذا سيملأون هذا الفراغ؟ وبماذا سيداوون ويضمدون هذه الجروح الغائرة العميقة؟!»[1].

سعادة إسعاد الآخرين:

من كمال الإيمان القيام بأعمال إنسانية تدخل في باب "البر" باصطلاح القرآن الكريم، وهي أعمال لا يمكن حصرها من حيث العدد، لكنها تشمل كل ما ينفع الآخرين، ابتداء من أجلّ أعمال الإحسان إلى أبسطها (كالتبسم في وجوه الآخرين وإماطة الأذى عن الطريق..) وتجمعها أهداف أهمها: القيام بها لوجه الله، ما يجعلها لا تؤذي المستفيد منها، ولا يترتب بها عليه أي شعور بالدونية أو بجميل لدى البار (إخفاء الصدقة حتى لا تعرف اليمين ما تفعله الشمال) .

وإذا كانت سعادة من يتلقى فعل البر واضحة، فإنها ليست المقصودة هنا لأن المتلقي ليس هو الذي يقوم بدور ما فيها، إنما المقصود هو أثر البر على القائم به، لأنه الفاعل، وقيامه بالفعل وراءه إيمان عميق بالتأكيد.. وهنا نتصور مبلغ السعادة التي سينالها هذا الأخير عندما يرى السعادة على الآخرين، ويشعر أنه السبب فيها، أي سعادته بإسعاد الآخرين.. وهو شعور مضاعف، نتيجة جملة من الاعتبارات (رضا الله، الأجر المنتظر في الآخرة، إسعاد الآخرين...) وفي تاريخ البشرية صفحات مشرقة

(١) المصدر نفسه ، ص: ١٠٦

لأناس مؤمنين، أسعدوا فسعدوا، وأعطوا فنالوا أكثر مما قدموا، سعادة وطمأنينة، وحياة طيبة..

النورسي في كتاباته لايفتأ يلح على أعمال البر، ويصور أفضالها على الفرد والمجتمع، بدءا من الإحسان إلى الوالدين والزوجة والأبناء، إلى كل المجتمع..فـ«الحياة العائلية هي مركز تجمّع الحياة الدنيوية ولولبها(...) فلا سعادة لروح الحياة العائلية إلا بالاحترام المتبادل الجاد والوفاء الخالص بين الجميع، والرأفة الصادقة والرحمة التي تصل إلى حد التضحية والإيثار. ولا يحصل هذا الاحترام الخالص والرحمة المتبادلة الوفية إلا بالإيمان بوجود علاقات صداقة أبدية، (...) وتحت ظل حياة لا حدود لها.. »[١]

وباختصار، فكل هذا الحب والإيثار والتضحية والبر..« هو نتيجة واحدة للإيمان بالحشر من بين مئات النتائج التي تتعلق بالحياة الاجتماعية للإنسان، وتعود إليها، والتي لها مئات الأوجه والفوائد.. »[٢]

سعادة تمديد العمر :

عمر الإنسان في الحياة من أهم ما يثبت عجز الإنسان، لأنه مرتبط بسر احتفظ به المولى عز وجل، وهو الموت الذي لا يمكن تقديمه أو تأخيره، وبالتالي فعمر الإنسان محدد على المستوى الأفقي، أي الزمني المعين، لكن بالنسبة للبعد العمودي، أي نوعية العمر ومدى تحميله بالأعمال والإنجازات، فهو بيد الإنسان، لأنه يشكل الثروة التي مُنِحَها، وبإمكانه تمديده نوعيا بتحقيق أكبر قدر ممكن من الأعمال الصالحات وأفعال الخير، وتوسيع أفق النفس وأخلاقياتها ومعارفها، حتى يعيش الإنسان في حياته المحدودة حياواتٍ غير محدودة[٣].. وهذا من أهم ما يسعد الإنسان، ويجعل حياته أكثر طمأنينة وراحة نفسية.

---

(١) سعيد النورسي: الكلمة العاشرة ، ص: ١٠٥

(٢) المصدر نفسه ، ص: ١٠٦

(٣) في الواقع، هناك أكثر من مفهوم إسلامي لتمديد العمر، وللحياة بعد الموت، مثل مفهوم الشهادة، وبعض الأعمال: عن أبي هريرة – رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أوولد صالح يدعو له، رواه مسلم (صفي الرحمن المباركفوري: منة المنعم في شرح صحيح مسلم ، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٩٩٩) .

الأعمال الصالحة كلها من تجليات الإيمان، ومن خلال مفهوم النية والعزم والقصد يتحول أي عمل حياتي عاد، وربما تافه، إلى عمل صالح يثاب صاحبه عليه، وبالتالي يُدخل على نفسه الطمأنينة والسعادة، بشعورها بإثراء رصيدها الخيري بطريقة بسيطة يشرحها النورسي للنفس المعنية بالأمر:

فيا نفس! إن كنت حقاً تريدين أن تنالي عملاً أخروياً خالداً في عمر قصير؟ وان كنت حقاً تريدين أن تري فائدة في كل دقيقة من دقائق عمرك كالعمر الطويل؟ وان كنت حقاً تريدين أن تحوّلي العادة إلى عبادة وتبدلي غفلتك إلى طمأنينة وسكينة. فاتبعي السنّة النبوية الشريفة.. ذلك: لأن تطبيق السنّة والشرع في معاملةٍ ما، يورث الطمأنينة والسكينة، ويصبح نوعاً من العبادة، بما يثمر من ثمرات أخروية كثيرة، فمثلاً: إذا ابتعت شيئاً، ففي اللحظة التي تطبق الأمر الشرعي (...) فإن جميع هذا البيع والشراء يأخذ حكم العبادة (...) مما يعطي تصوّراً روحياً، وهذا التصور يذكّرك بالشارع الجليل سبحانه، أي يعطي توجهاً إلهياً. وهذا هو الذي يسكب السكينة والطمأنينة في القلب»[1].

العكس صحيح وواضح، فانعدام الإيمان بحياةِ ما بعد الحياة، يجعل أفق الإنسان ضيقا محدودا، فتطغى عليه التحديات والهموم دون أن يجد لها مخرجا، أومنها ملجأ، إلا نحو أزمات واختلالات نفسية وصحية: كالجنون والانهيار وأمراض العصر.. وإلا نحو الموت هروبا، في ما يعرف بالانتحار، وهو ما عرفته المدنية المعاصرة بماديتها وانفلاتها من أي بعد روحي.. «فإذا استند الإنسان إلى أنانيته وغروره واتخذ الحياة الدنيا غاية آماله، وكان جهدُه وكدُّه لأجل الحصول على لذاتٍ عاجلةٍ في سعيه وراء معيشته. فسوف يغرق في دائرة ضيقة (...) أما إذا أدرك أنه ضيفٌ عزيز، وتحرك ضمن دائرة مرضاة مَنْ نَزَل عليه ضيفاً وهو الكريمُ ذو الجلال، وصرَفَ رأسمال عمره ضمن الدائرة المشروعة فسوف يكون نشاطه وعمله ضمن دائرة فسيحة رحبة جداً تمتد إلى الحياة الأبدية الخالدة، وسيعيش سالماً آمناً مطمئناً، ويتنفس تنفس الصعداء ويستروح، وبإمكانِهِ الصعودُ والرقي إلى أعلى عليين. »[2].

الإيمان حل لإشكالات المجتمعات المدنية المعاصرة:

كل ما تقدم من تجليات للإيمان لها دور مباشر في إسعاد الفرد وإنزال الطمأنينة

---

(١) سعيد النورسي: الكلمة الرابعة والعشرون - ص: ٤١٦

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٦٥

والسكينة في قلبه، مما يؤدي تلقائياً إلى تكوين مجتمع تغمره السعادة والأمان، وتشيع فيه سمات التآزر والتكافل والإيثار..الشيء الذي ينتج عنه حل إشكالات المدنية المعاصرة على مستوى المجتمعات، بعناصر يلخصها النورسي في هذه الكلمات:

«المدنية الحاضرة تؤمن بفلسفتها: أن ركيزة الحياة الاجتماعية البشرية هي "القوة " وهي تستهدف "المنفعة" في كل شيء وتتخذ "الصراع" دستوراً للحياة. وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطةً للجماعات. وغايتها هي "لهو عابث" لإشباع رغبات الأهواء وميول النفس (...) ومن المعلوم أن شأن "القوة" هو "التجاوز". وشأن "المنفعة" هو "التزاحم" إذ هي لا تفي بحاجات الجميع وتلبية رغباتهم. وشأن "الصراع" هو "التصادم" وشأن "العنصرية" هو "التجاوز" حيث تكبر بابتلاع غيرها. فهذه الدساتير والأسس التي تستند إليها هذه المدنية الحاضرة هي التي جعلتها عاجزة - مع محاسنها - عن أن تمنح سوى عشرين بالمائة من البشر سعادة ظاهرية بينما ألقت البقية إلى شقاء وتعاسة وقلق..»[١]

هذا التشخيص الدقيق للأدواء من قِبَل النورسي يتبعه وصف للعلاج بأدوية الإيمان، من طب القرآن الكريم، فـ«أما حكمة القرآن فهي تقبل "الحق" نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلاً من "القوة" وتجعل "رضا الله ونيل الفضائل" هو الغاية والهدف، بدلاً من "المنفعة" وتتخذ دستور "التعاون" أساسا في الحياة، بدلاً من دستور "الصراع"، وتلتزم رابطة "الدين" والصنف والوطن لربط فئات الجماعات، بدلاً من "العنصرية والقومية السلبية ".. وتجعل غاياتها "الحدّ من تجاوز النفس الأمارة [بالسوء] ودفع الروح إلى معالي الأمور وتطمين مشاعرها السامية لسوْق الإنسان نحو الكمال والمثل العليا لجعل الإنسان إنسانا حقاً»[٢].

والخلاصة التي ينتهي إليها النورسي هي نتاج منطقي لعناصر الإيمان القرآنية المتقدمة،حيث «إن شأن "الحق " هو "الاتفاق".. وشأن "الفضيلة" هو "التساند".. وشأن "التعاون" هو "إغاثة كل للآخر".. وشأن "الدين " هو " الأخوة والتكاتف".. وشأن "إلجام النفس وكبح جماحها وإطلاق الروح وحثها نحو الكمال " هو "سعادة الدارين"،

---

(١) سعيد النورسي: الكلمة الخامسة والعشرون - ص: ٤٧٢

(٢) سعيد النورسي: الكلمة الخامسة والعشرون – ص ص : ٤٧٢ – ٤٧٣

وهكذا غُلبت المدنية الحاضرة أمام القرآن الحكيم مع ما أخذت من محاسنَ من الأديان السابقة ولاسيما من القرآن الكريم» [١].

من أهم مشكلات المدنية المعاصرة غياب صوت الضمير، وشيوع الجرائم السالبة صفاء الحياة وأمنها.. والعلاج الأنجع لذلك هو الإيمان وما يتبعه من عمل صالح يؤمن بفكرة الثواب والعقاب... «إن الدين ليس عبارة عن الإيمان فقط، بل العمل الصالح أيضا هو الجزء الثاني من الدين، فهل يكفي الخوف من السجن أو من شرطة الحكومة لكي يبتعد مقترفو الكبائر عن الجرائم الاجتماعية التي تسمم الحياة.. »[٢] طبعا، لا يكفي، بل إن الإيمان هو الحل الأمثل لبسط الأمن والطمأنينة والسلام.

ما أحوج عالم اليوم إلى تبني فكر النورسي الإسلامي منهاجا في الحياة، فهو الكفيل بحل كافة إشكالاته، وتحقيق إنسانيته وسعادته، وكبح جماح الصراعات والحروب، وتجنيب هذا الكوكب الجميل وسكانِه كوارثَ تصنعها أنانية الإنسان المتسلحة بالعلم بعيدا عن الأخلاق .. ولعل أحسن خاتمة لكل ما تقدم أن نردد مع النورسي:

«لا خلاص للقلوب والأرواح من قبضة القلق الرهيب، ومن دوامات الاضطراب والخوف، ومن ظمأ الضلالة وحرقة نار البعد عن الله إلا بمعرفة خالق واحد أحد.. إذ ما إن يُسلَّم أمر القلوب والأرواح، وأمر كل الموجودات إلى خالق واحد أحد حتى تجد راحتها، وتحظى بخلاصها من عناء تلك الزلازل النفسية المدمّرة، وتسكن من ذلك القلق وتستقر وتطمئن.. »[٣].

المصادر والمراجع

القرآن الكريم: برواية حفص عن عاصم .

المصادر:

بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، عن موقع: http://www.nuronline.org

بديع الزمان سعيد النورسي: اللمعات، عن موقع: http://www.nuronline.org

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٧٣

(٢) سعيد النورسي: سيرة ذاتية – ص: ٣٤٣

(٣) سعيد النورسي: الكلمة الثالثة والثلاثون – ص: ٧٩٣

بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات: المكتوبات، عن موقع: http://www.nuronline.org

بديع الزمان سعيد النورسي: سيرة ذاتية، عن موقع: http://www.nuronline.org

بديع الزمان سعيد النورسي: صيقل الإسلام، عن موقع: http://www.nuronline.org

المراجع:

أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مكتبة الإيمان، المنصورة، دت.

أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، ٢٠٠١.

إسماعيل حقي البروسوي: تفسير روح البيان، المطبعة العثمانية، ١٣٣٠هـ، إستانبول.

روجيه جارودي: حفارو القبور الحضارة التي تحفر للإنسانية قبرها، ترجمة: عزة صبحي، دار الشروق، القاهرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .

رينيه دوبو : إنسانية الإنسان نقد علمي للحضارة المادية، تعريب: د / نبيل صبحي الطويل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

سميح عاطف الزين: علم النفس معرفة النفس الإنسانية في الكتاب والسنة، المجلد٢، دار الكتاب اللبناني / دار الكتاب المصري، ١٤١١ هـ / ١٩٩١م .

صفي الرحمن المباركفوري: منة المنعم في شرح صحيح مسلم، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض،ط١. ١٩٩٩.